الإسلام والبرود في الغرب

السفير الدكتور مراد هوفمان

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)
مركز البحوث والدراسات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى
1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الإسلام والبرود [1] في الغرب [*]

الدكتور مراد ولفرد هوفمان [**]

ترجمه عن الإنجليزية: أ.د.عبد الهادي مُحَمَّد عمر تميم

تتطلب الاستراتيجية الدعوية للمسلمين في الغرب تحليلا مستنيراً للثقافة والمعتقدات الغربية المعاصرة، ومن ثم طرح المعالجات التي يقدمها الإسلام بصورة مقنعة بوصفه دواء.. فالإسلام يمكنه أن يقدم ما يحتاجه أمر إنقاذ الغرب.

الجاليات الإسلامية في الغرب

- الميول والمؤثرات:

بغض النظر عن الجزء الأوروبي من تركيا والعاصمة اسطنبول، يقدر عدد المسلمين في أوربا بنحو ثلاثين مليونًا، نصفهم يعيشون في البوسنة والهرسك وكسوفو (سنجك وبازار) [2] ، بينما يعيش النصف الباقي في أوربا الغربية، أما في أمريكا الشمالية فإن عدد المسلمين – وهو ينمو باستمرار– يتراوح بين ستة وثمانية ملايين، بينهم عدد كبير من الأمريكين السود.

---

(1) قصد من كلمة «البرود» استعمال مجازي في مواجهة مفهوم جارلس رايخ «اخضرار أمريكا».

(*) تدور الورقة حول المفهوم الإسلامي وما يطرحه من حلول لمشكلات الحضارة الغربية– المترجم.

(**) سفير سابق.. اعتنق الإسلام (ألمانيا).

(2) حتى هذه اللحظة لم يتضح كم من المليوني كوسوفي مسلم سيستطيعون البقاء في مواجهة التطهير العرقي الذي يمارسه الصرب، وهل سيتمكنون من العودة إلى ديارهم!

لقد تنامت أعداد المسلمين في أوربا الغربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية إثر هجرة (2,1) مليون تركي إلى ألمانيا ونحو (4) ملايين من المغاربة في فرنسا ، و(3) مليون باكستاني وبنغالي في بريطانيا . وأغلب هؤلاء من العمال غير المهرة. ومن الطبيعي أن تختلف وضعية هؤلاء وتأثير وجودهم عن أوضاع وتأثير الوجود المسلم في أمريكا الشمالية، حيث يتألف المجتمع المسلم هناك . بدرجة كبيرة . من الطلاب والأكاديميين المهاجرين إضافة إلى المواطنين السود الذين اعتنقوا الإسلام في مراحل مختلفة.

وفي أوربا كان الوجود المكثف لمسلمين ينتمون إلى مجموعات عرقية محددة سهل تمييزها أمرًا في غير صالح هذه الجماعات في ظل واقع يتضافر فيه التعصب العرقي مع مشاعر العداء للإسلام التي ترجع جذورها إلى أحداث تاريخية في ذاكرة المجتمع قرون عددًا.

فالألمان على سبيل المثال، يتذكرون أن الدولة العثمانية ظلت طوال المدة الواقعة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر تمثل الخطر الأكبر الذي يتهدد النصارى في وسط أوربا.

ومنذ ذلك الوقت اعتبر الإسلام دينًا تركيًّا، واعتبر القرآن توراة الأتراك وإنجيلهم. وتنعكس هذه الحقيقة سلبًا على مجتمعات العمال المهاجرين الذين تستضيفهم كل من النمسا وسويسرا وألمانيا. أتراهم بهجرتهم هذه المسالمة في ظاهرها تحقيق ما عجزت عنه سيوفهم المقوسة الحادة عندما حاصروا فينا؟! هكذا يتساءل البعض الآن يقلق.

كما أن ذكريات الاحتلال الاستعماري وما شابه من سوء معاملة لتلك الشعوب يزيد الوضع سوءًا بالنسبة للمغاربة والجزائريين والتونسيين في فرنسا ، وبالنسبة لمسلمين

شبه القارة الهندية في بريطانيا، بينما تقف قضية فلسطين وأسلوب تناول أجهزة الإعلام الصهيونية لها عقبة كبرى أمام مسلمي أمريكا الشمالية.

– في ظل هذه الظروف، نجد أن **أوضاع الجاليات المسلمة في الغرب** تختلف اختلافًا كبيرًا، وتختلف تبعًا لذلك فرص الدعوة المتاحة لها.

أ/ **التقوقع**: (أو التحول إلى مجتمعات مغلقة مثل الغيتو اليهودي):

ينزع كثير من المهاجرين المسلمين، خاصة أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة (للغات بلدان المهجر)، إلى تكوين مجموعات عرقية مغلقة تقوم تحت ظروف الصدمة الحضارية التي تعيشها بتوفير الخدمات الاجتماعية الأساسية لأفرادها، وتمنحهم كذلك ما يفقدونه من إحساس بالانتماء للوطن. وفي هذا المرحلة يبدأ التراث الشعبي ويتضمن الدين، في التحول إلى عامل أهم بكثير عند أفراد الجيل الأول من المهاجرين مقارنة بما كان عليه الحال في بلدانهم الأصلية.

ولما كان أفراد هذا الجيل قد غادروا بلدانهم في الأساس لأسباب اقتصادية أكثر منها سياسية، فإنهم عادة ما يعتزمون الرجوع إلى بلدانهم بمجرد لما يكفيهم من المال.

وبالتالي فإن هذا الجيل لا يركز كثيرًا على المؤسسات والتنظيمات الدينية، بل لم يفكر في القيام بالدعوة في الوسط غير المسلم الذي يعيش فيه. وبدلا عن ذلك كان أفراد الجيل الأول يحاولون الدفاع عن مظاهر عاداتهم الخاصة في الموسيقى والطعام والأعياد والأزياء والقيم الاجتماعية، واستمروا في الاهتمام بأوطانهم، خاصة المنتمين منهم إلى بلدان قريبة من أوربا مثل بلدان شمالي إفريقيا وتركيا .

وقد شهدت أمريكا الشمالية أيضًا تطورًا مماثلا ولكن بدرجة أقل، تمثلت مظاهره في بعض المساجد الخاصة بالهنود أو العرب أو السواد.

على أن الجاليات المسلمة في أمريكا الشمالية، إذا استبعدنا التصنيف على أساس ديني، هي أوفر حظًّا بكثير من حيث الاندماج في المجتمع والانفتاح عليه، وقد حقق كثير من المنتمين إلى هذه الجاليات، المؤهلين أكاديميًّا، نجاحًا مشهودًا في مجالات تخصصاتهم، ونسبة لأن البلاد الأصلية لمسلمي أمريكا الشمالية بعيدة جدًّا، فإن كثيرًا منهم، لأسباب تتعلق بخياراتهم السياسية، لا يعتزمون، أو ليس متاحًا لهم، العودة إلى أوطانهم.

ب/ **تكوين جزر للاحتماء:**

لقد تبين أن الجيل الأول من المسلمين المهاجرين يخفق عادة في تحقيق حلم العودة إلى الوطن، ولعل السبب الغالب هو أن أبناءهم (أي: الجيل الثاني من المهاجرين) يرفضون العودة معهم إلى الوطن.

ويشعر أفراد هذا الجيل بالتمييز ضدهم سواء في بلد المهجر أو في موطن آبائهم، إذ إنهم في كثير من الأحيان، لا يتقنون أيًّا من لغتي البلدين بالقدر الذي يمكنهم من المنافسة، لذا فإن الجاليات المسلمة عندما تواجهها مثل هذه الظروف تقرر أن تنشئ لنفسها البُنى الأساسية الخاصة بها. ومن أمثلة ذلك بناء المراكز الإسلامية، وتشييد جوامع مكتملة بمآذنها بدل مساجد صغيرة في الأفنية الخلفية للأدوار العلوية.

هذا هو الحال في الوقت الحاضر، في كل مكان تقريبًا في أوربا، من فنلندا (التي تعيش فيها جاليات مسلمة إريترية وصومالية) والسويد ، إلى هولندا ، وبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا. وفي ألمانيا وحدها أدى هذا الاستعداد لإنشاء هذه المؤسسات وتوفير الأموال اللازمة لها إلى ظهور نحو 2500 مركز إسلامي بحلول عام 1998م. ومعظم هذه المراكز تمثل قوميات بعينها وتعتبر أقواها نفوذًا المؤسسات التركية ملي قورس

(milli Gorus) وحركة سليمان ليلار (VIKY) والحركة النورسية (ويرجع الفضل في تأسيسها إلى المفتي الكردي الراحل سعيد النورسي).

وتقوم التنظيمات المذكورة بالدعوة الآن، ولكن ذلك ـ للأسف ـ يكاد ينحصر في إطار مجهود دفاعي مقتصر على المجتمع المسلم.

هذه الجزر الإسلامية يجري تكوينها نتيجة لمجهودات أشخاص يفرضون على أنفسهم، التزامًا قويًّا، ولتوفر موارد مالية، حيث تنشأ تبعًا لذلك هذه التجمعات التي تخص قوميات بعينها كالأتراك والبوشناق والألبان والإثيوبيين، فتمنحهم الشعور بأنهم في بلادهم وتعينهم في المحافظة على إسلامهم، إن باعثهم القوي على الدفاع عن تلك التجمعات المنظمة يجعلهم لا يستطيعون بذل مجهود حقيقي للتمييز بين ما هو مجرد عادات ذات صلة بحضاراتهم وبين ما هو نابع من الشرق الإسلامي، ولذلك نجد أن الانقسامات الطائفية الموجودة في الهند وتركيا تستمر في بريطانيا وألمانيا إلى الحد الذي يربك بل وينفر مواطني الدول المضيفة من الراغبين في التعرف على الإسلام.

وهذا يفسر عجز ملايين المسلمين المقيمين في أوربا الغربية عن جذب أعداد أكبر من سكان الدول المضيفة لاعتناق الإسلام، إذ لم يقدر مليونان من الأتراك في ألمانيا على اجتذاب أكثر من ستين ألف ألمانيًّا لاعتناق الإسلام، وذلك خلال مدة لا تقل عن ثلاثين عامًا. وللأسف لا ينتظر من هذه الحصيلة إلا أن تستمر سلبية ما استمرت غالبية الأتراك في ألمانيا في التركيز على إعادة أسلمة تركيا التي تستمد سياستها من مبادئ كمال أتاتورك، بدلا من التركيز على نشر الإسلام في ألمانيا نفسها.

ومرة أخرى نجد أن الصورة في أمريكا الشمالية أكثر إشراقًا. فالأمريكيون السود، باعتبارهم ليسوا من المهاجرين، ليست لديهم بلدان أخرى يركزون مجهوداتهم عليها.. بل

حتى المسلمين المهاجرين، خاصة أولئك القادمين من فلسطين وسوريا والعراق ولبنان ومصر ، فإنهم متمسكون بحقوقهم ومنظمون في تعاملاتهم رغم الحواجز العرقية، وقادرون من الناحية الفكرية على التأقلم مع المحيط غير المسلم الذي يعيشون فيه. وتشمل البنيات الخاصة بهم مدرسة الدراسات الاجتماعية العليا الإسلامية في ليزبيرغ، والجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية (ISNA)، ومجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (CAIR)، والخدمة الإعلامية الإسلامية (I.I.S) في لوس أنجلوس.

وليس ما ذكرنا سوى نزر يسير من المؤسسات والتنظيمات الإسلامية الموجودة هناك، والتي تلبي حاجة الواقع من حولها وتضطلع، على خير وجه، بمهمة شرح دين الإسلام لمن يهتم بذلك.

جـ/ **التحدي:**

وفي كلتا القارتين (أي: أوربا وأمريكا الشمالية) تواجه المسلمين ذات التحديات. إذ يتعين على الجيل الثالث أن يكوّن مجتمعات إسلامية كاملة الاندماج، بحيث لا تسيطر عليها عناصر عرقية بعينها.

ويجب على هذه المجتمعات المتكاملة أن تقلل شيئًا فشيئًا من التركيز على ذواتها، وأن تزيد من اهتمامها بالعالم من حولها حتى تتمكن من نشر الدين الحنيف.

ما هو الهدف؟

1- توكيد الذات:

إن مسلمي أوربا الغربية، كما تقدم معنا، خلافًا لإخوانهم في أمريكا، يسعون فقط إلى أن يلقوا التسامح في البلدان المضيفة، وأن يُعاملوا وفق ما تقتضيه مبادئ القانون والعدالة، ويعد هذا الطموح المحدود أمرًا معتادًا لمثل هؤلاء المهاجرين الذين لا يسهل عليهم الحصول على وضعية المواطنة في البلدان التي اختاروها لإقامتهم، كما هو الحال في ألمانيا مثلا. وما دام الواحد منهم يحذر خطر الإبعاد، فإنه يكون عادة بعيدًا عن مجال الثقة بالنفس وتوكيد الذات.

وعليه فإنه ليس من المبالغة القول: بأن معلومات الأوربيين اليوم عن الإسلام، وعلى الرغم من وجود ملايين المسلمين بينهم، لا تزيد كثيرًا عما كانوا يعرفونه عن الإسلام عندما كانت معرفتهم بالشرق مستمدة بالدرجة الأولى من آداب الاستشراق وقصص المغامرات، إنه لواقع محزن، بيد أنه عين الحقيقة.

2- التفاؤل:

على القصور في العمل الدعوة في القارة القديمة لا يعود إلى ضعف أوضاع المهاجرين أو تدني مستوياتهم التعليمية أو انشغالهم بأنفسهم أو بأوطانهم فحسب، بل إن هناك أيضًا قدرًا كبيرًا من التشاؤم الانهزامي.. ففي ظل مشاعر العداء المتأصل للإسلام في أوربا[1] يبدو واقعيًّا أن نفترض أن أقصى ما يطمح إليه الشاعر المسلم هناك هو أن يقابل بالتسامح، وأسوأ ما يتوقعه هو أن يمارس ضده التمييز المصحوب بالعنف.

(1) يعتبر «نورمان دانيال» أكبر العلماء المهتمين بآثار ومظاهر العداء للإسلام الذي ترسخ في الأذهان عبر القرون.

3- التعقل التكتيكي:

ربما يكون من التعقل التكتيكي ألا يُبالغ في الطموحات وألا يستعجل في تحقيقها، فأوربا، على أية حال، لم تكن يومًا مكانًا للتعددية الدينية، بل إنها عُرفت بعدم التسامح الديني، وكان ذلك مبنيًّا على حماسها للتبشير بالمسيحية وتحقيق السيادة، بحيث أصبح الظهور المفاجئ لدين جديد (الإسلام) يمثل مشكلة نفسية كبرى على المستوى الجماعي.

ومما يزيد الأمور سوءًا أن الإسلام، خلافًا لليهودية على سبيل المثال، هو الدين عينه الذي اعتبر أكبر خطر يتهدد المسيحية، وطرحًا مناقضًا لها، لمدة تزيد على سنة، فهل آن الأوان للترحيب بالهرطقة (أي: الإسلام في رأيهم)، بل ورعايتها؟

ولا يمكن حتى من الناحية النفسية أن تنسى أوروبا بين عشية وضحاها تراكمات السنين من آثار الدعاية الغربية الخبيثة المعادية للإسلام، والتي استمرت من أيام الحملات الصليبية مرورًا بالحقبة الاستعمارية إلى القرن العشرين.

كذلك ليس من العقلانية في شيء أن نفترض أن إقامة المآذن إلى جنب الكاتدرائيات يمكن أن يصادف قبولا فكريًّا في الغرب أو أن تروق لأهله رؤية هذه المآذن. وحتى إذا تقبل بعض أهل الغرب، على غيظ ومضض إقامة المآذن القصيرة هنا وهناك، فإن الاعتراض على الأذان، أي ما يتضمن من شهادة أن محمدًا رسول الله، يظل على أشده إلا في حالات نادرة معظمها في مناطق نائية مثل منطقة فينكس (في أريزونا بأمريكا).

وفي ظل هذه القابلية لنشوب صراع، فإن من الحكمة عدم إثارة المخاوف بفرض

التغيير في عقائد راسخة لأناس بُرمجت عقولهم لعدة قرون ضد الإسلام، وذلك من خلال حملات التشويه المنظمة.

ويتبين أن الحذر أمر جوهري خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن الإسلام يبدو حال انتشاره خطرًا يتهدد أسلوب الحياة في الغرب فأحكامه تطال كل طرائق الحياة من الذاتوية (Individualism) المفرطة إلى مذهب المتعة والهوى، وهو أيضًا يمنع التدخين وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

إن التخوف من ردة فعل شعبي عام حال تحقق نجاح سريع ومؤثر هو أمر له بالفعل ما يبرره. وهذا ما يفسر ظاهرة تصاعد النزعات اليمينية كما هو الحال في ألمانيا وفرنسا ، وكذلك التنامي المقلق للجماعات النصرانية المتطرفة، الميَّالة إلى المصادمة والتي تنطلق من أرضية عداء سافر للإسلام.

وفي حين لا يعتبر العداء للإسلام أمرًا غير مقبول من الناحية السياسية. فإن العداء للسامية اليهودية يعد من المحرمات. أما العداء للسامية العربية فلا.

4- تحدي التنوير:

إن التشاؤم بشأن الفرص المتاحة للدعوة الإسلامية يبدو مبررًا على نحو أقوى في ظل القبول الواسع الذي تلاقيه وجهة النظر الحديثة القائلة: بأن الإنجازات الغربية التي تحققت في أعقاب حقبة التنوير هي قيم عالمية ينبغي اتباعها على مستوى العالم.

وفي هذا إشارة إلى ديمقراطية وستمنستر (Westminstaer) ومبادئ النظم الجمهورية والعلمانية والعلمية (أي: اتباع منهج العلوم الطبيعية في سائر حقول

المعرفة) والصيغ الغريبة لحقوق الإنسان التي تتضمن مبدأ تحرير المرأة ومساواتها بالرجل. بل حتى ذوي العقلية المؤيدة للتعددية في حقبة ما بعد الحداثة يفترضون دون استثناء أن الإسلام في الأساس لا يتوافق مع هذه الأجندة الداعية إلى العولمة الثقافية والسياسية.

5- ليس التسامح... بل التقبل:

لكن وعلى الرغم من كثرة المعوقات، فإنني أدعو بشدة إلى أن يسعى المسلمون في كل مكان لا إلى أن يُقابلوا بالتسامح فحسب، بل إلى أن يلقوا التقبل ويجدوا القبول لدى المجتمعات المضيفة.

وقد أدرك «يوهان ولفغانغ فن جوته» منذ مائتي عام أن من يقابل فقط بالتسامح فقد قول في واقع الأمر بالإهانة: (يجب أن يكون التسامح فهو يرقي إلى أن يكون إهانة) [1]. بالطبع فإن التعددية الحقيقية كما تبينها الآية[2], تأمر بالاعتراف المتبادل، وأن تتقبل الأطراف المعنية بعضها بعضًا على أساس المساواة.

ويعد هذا الهدف ذا أهمية جوهرية، لأن القبول فقط وليس مجرد التسامح هو الأصل في الأسلوب الذي يجب أن يُنظر به إلى الأقليات المسلمة ونشاطاتها بوصفها أمرًا طبيعيًّا تمامًا.. ولن يصبح الإسلام في مأمن إلا بعد الحصول على هذا الوضع الطبيعي.

---

(1) John Wolfgang Van Goethe, Vol. VI Maximen und Reflexionen, No.121.

(2) في قوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه...** ﴾ (المائدة: 48).

6- الوضع السوي:

يمكن مشاهدة ما يعنيه الوضع السوي من منظور التعددية الدينية في دمشق والقاهرة وعمان واسطنبول وكذلك في أمريكا الشمالية. أما في أوروبا وبعد قرون من الحروب الداخلية بين الطوائف المسيحية، فقد غدا من المعتاد، على الأقل، أن ترى كنائس الكاثوليك والبروتستانت قبالة بعضها أو جنبًا إلى جنب في قلب المدينة.. ولا يمكننا أن نتحدث عن التطبيع إلا إذا قام مسجد في ذات المكان إلى جانب الكنيستين، سواء في أوربا أو في أمريكا الشمالية.

وقد أعطت الكنيسة الكاثوليكية مثالا جيدًا على ما يمكن أن يتضمنه مفهوم التطبيع، فخلال انعقاد المجلس الثاني للفاتيكان في مطلع الستينات وصلت روما إلى حد اعتبار الإسلام وسيلة صحيحة موصلة إلى النجاة والخلاص، إلا أن روما رفضت ولا تزال ترفض الإقرار بأن محمدًا ﷺ هو الهادي والقائد لمن سلك هذا الطريق القويم.

وأعتقد أنه لن يكون للحوار بين النصرانية والإسلام معنى، ولن يكون حوارًا بين ندّين إلا بعد الإقرار بنبوة مُحَمَّد والإيمان بأن القرآن هو كلام الله.

ما يحتاجه الغرب

1- الطلب مقابل العرض:

والذي أراه، من وجهة نظري الخاصة، أن الدعوة الإسلامية سوف تحقق تقدمًا في الغرب فقط إذا تم تقبل الإسلام وصار أمرًا مألوفًا.

والتطبيع المنشود لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نظُر إلى المسلمين ليس على أساس أنهم مجموعة تطلب شيئًا (التسامح المواطنة، الحماية القانونية، القبول) فحسب، بل

على أساس أنهم أناس لديهم شيء جوهري يمكنهم تقديمه، شيء يفتقده الغرب دون أدنى شك، ويحتاج إليه إذا أراد لحضارته البقاء.

وتتطلب الاستراتيجية الدعوية السليمة للمسلمين في الغرب، وبالذات الجيل الثالث من المهاجرين، بادئ ذي بدء تحليلا مستنيرًا للثقافة والمعتقدات الغربية المعاصرة، وعلى ذلك الأساس يتم طرح المعالجات التي يقدمها الإسلام بصورة مقنعة (طرح الإسلام بوصفه دواءً).

2- نصر أجوف:

ربما يكون الغرب قد حقق نصرًا أيدلوجيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا على الشيوعية، وأمست الولايات المتحدة الأمريكية منذ غرب شمس الاتحاد السوفيتي السابق القوة العظمى الوحيدة على المسرح الدولي.

كما أن العولمة التقنية والاقتصادية ربما تكون طريقًا ذا اتجاه واحد يقود من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق. وقد يكون الغرب أيضًا هو المتفوق على المستوى العالمي من حيث دخل الفرد ونسبة المتعلمين في المجتمع، ومتوسط الأعمار، والعناية بحقوق الإنسان بما في ذلك المشاركة السياسية.

كل ذلك قد يكون مسلمًا به لكن هذه الجنة الغربية التي أخذت تقرع الأجراس إيذانًا بانتهاء التاريخ (وفقًا لما يقول به فرانسيس فوكوياما)، وتدق طبول الحرب تأهبًا للصراع مع الحضارات الأخرى (وفقًا للصورة التي يرسمها صمويل هنتنغتون)، هذه الجنة الغربية برغم كل ذلك، تعاني صراعًا عميقًا يرتبط بأسباب وجودها، وذلك من الجهتين النظرية والعملية.

3- التخلي عن المسيحية:

لكي نفهم الوضع الأخلاقي للعالم الغربي، لا بد أن ندرك التفرد الذي تتسم به الحضارة الغربية المعاصرة في التاريخ الإنساني العالمي. فهي تمثل أول مجتمع على الإطلاق يعيش دون أن يرتبط ارتباطًا فعليًّا بمجال الظنيات. والمجتمع الغربي هو أيضًا أول مجتمع يعيش الإلحاد عمليًّا (أو على الأقل يتبع مبدأ لا أدري حيال الغيبيات) على أساس معرفي.

إن أوربا قد دخلت بدرجة أكبر من الولايات المتحدة في عهد ما بعد المسيحية. لقد تراجعت المسيحية في أوربا إلى الحد الذي لم تعد معه عاملا فاعلا، لا في السياسة ولا في الاقتصاد، وليس لها سوى تأثير ضئيل في حقل العلوم (تقنية الجينات). وقد اضمحل أثر المسيحية كذلك على أخلاقيات الأفراد.

وعلى الرغم من أن العديد من مناحي الحياة العامة لا تزال تندثر باندثار المسيحية، فإن المادية المطبقة ومذهب التنكر الفلسفي للعينات ونسبية الأخلاق، هي الآن المظاهر التي ترسم ملامح الواقع الأوربي في كل مجال تقريبًا.

وعلى الرغم من وجود جيوب هنا وهناك تبشر ببعث مسيحي جديد، فقد بلغ اندثار المسيحية في الغرب حدًّا جعل ما كان مشتركًا بين العساكر المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى من إيمان بالله وإيمان بالوحي أكثر بكثير ـ حتى في أحلك ظروف الصراع ـ مما هو مشترك بين المسلمين ومعظم شعوب الغرب في هذا العصر.

4- عهد ما بعد المسيحية:

ليس المقصود من هذه العبارة أن المسيحية قد تلاشت، فقد استمر بقاء الكنائس

كمؤسسات، ولا يزال للبابا جماهير رهن إشارته، وسوف تستمر الآثار طويلة الأجل للعقيدة المسيحية لبعض الوقت.

إن هناك في الواقع حركات شعبية إنجيلية بروتستانتية، وآثار من الأصولية المسيحية الميالة إلى المصادمة والعنف وخاصة في الولايات المتحدة. وهناك محاولات من بعض رجال الدين المسيحي لتطويع المسيحية لتلائم أساليب وتقنيات عصر المعلومات، أملا في جعل المسيحية أوثق صلة بمعطيات هذا العصر.

وبالطبع كما تنبأ القرآن، فإن المسيحيين الحقيقيين الملتزمين هم الذين يبدون الاستعداد للتعاون مع المسلمين في الشئون الاجتماعية على المستوى المحلي (وينطبق ذلك على البروتستانت أكثر منه على الكاثوليك أو الأرثوذكس).

ويعلم هؤلاء المسيحيون الملتزمون أنهم قد صاروا بدورهم أقلية دينية في الغرب، فهم بالتالي يعيشون ذات الظروف التي يعيشها المسلمون، إذ إن كلتا المجموعتين تبحران في خضم من الإلحاد يزداد باطراد.

وهناك أيضًا ضرب من التشرد الديني، وهو ظاهرة مشاهدة على امتداد العالم الغربي: شباب ضلوا طريقهم في الحياة وشعروا بخوائها، فراحوا بالتالي يبحثون عن الإحساس بالدين وعن المجتمع المتدين وعن أثر الدين في الحياة، فهم يتنقلون من تبعية كاهن إلى آخر، ومن نحلة غامضة إلى أخرى، بما في ذلك النسخ الغربية من البوذية والشامانية.

5- إخفاق «مشروع الحداثة»:

إن ردود الفعل المذكورة وغيرها، لا تعِدُ ـ ولعلها لن تفعل أبدًا ـ حتى الآن، بتغير

ثوري واسع النطاق في المشروع الغربي، مشروع الحداثة، وهو الناتج المستمر لما أطلق عليه عصر العقل وفترة التنوير التي ارتبطت به في القرن الثامن عشر.

إن محاولات المسلمين لمجابهة هذا الوضع يجب أن تنطلق من تحليل متعمق لهذا النموذج المفرط في نجاحه، الشديد في خطورته.

أ) وقفة أخرى مع فترة التنوير:

لقد كان تاريخ التطور الفكري في الغرب وفي العالم الإسلام متزامنًا، حتى عصر النهضة الذي قل فيه الاهتمام بالدين في الغرب، وانصب على الفرد.. ولكن اللحظة الحاسمة جاءت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما بدأ مفكرو أوربا في التحرر التدريجي من سيطرة الكنيسة، بإعلائهم من شأن العقل الإنساني، واعتبار حكمه هو الفيصل في أمور الدين.

وكان أشهر الشخصيات التي سلكت هذا الطريق هم بالطبع فلاسفة من أمثال رينيه ديكارت (1596م . 1650)، وغوتفريد فيلهلم ليبنتز (1646 . 1716)، وديفيد هيوم (1711 . 1776)، وإيمانويل كانت (1724 . 1804)، إضافة إلى عدد من كبار الكتاب مثل فرانسوا فولتير (1694 . 1778)، وغتهولد إفرايم ليستغ (1729 . 1781)، وجوهان ولفغانغ فون جوته (1749 . 1832)، والملك فردريك الثاني (فردريك العظيم) ملك بروسيا (1712 . 1786).

لم يكن هؤلاء ملاحدة، بل كانوا يعتقدون بمذهب الربوبية، وهو الإيمان بإله واحد، ولكن من خلال التأمل والتدبر.

ولم يكن هدفهم القضاء على الدين، بل كانوا يرمون إلى تحرير الإنسان من نير العقائد التي أمسكت بخناقه، ومن الظلامية والضبط والتقييد والرقابة الصارمة التي

مارستها ضده الكنيسة المسيحية. ونظرًا لتمسك دعاة الحركة التنويرية بمبدأ حرية الفكر والتسامح وتحكيم العقل، فليس من المستغرب أن يكون بين أنصار الحركة التنويرية من اعترف بتفضيله نظريًّا للإسلام دون أن يعتنقه، لما فيه من عقلانية على المسيحية بأفكارها التي تستعصي على المدارك، وعقيدة التثليث ا-لتي تتبعها، ومن أمثال هؤلاء (ليسنغ) و(فردريك الثاني) و(وجوته).

ب) من التنوير إلى العدمية(*):

تحول انعتاق الحركة التنويرية في القرن التاسع عشر من سلطة الكنيسة ـ للأسف ـ إلى انعتاق من الدين نفسه، فلم تنبذ فقط عقائد الكنيسة باعتبارها غير عقلانية، بل اعتبر الإيمان بوجود الله نفسه أمرًا غير عقلاني، وبدأت حاكمية الله تُستبدل تدريجيًّا بالحرية الذاتية للبشر، التي أصبحت بذلك الفيصل في قياس كل الأمور، بل أصبح العقل نفسه دينًا، وصار العلم لا يقل في تزمته وقلة تسامحه عن الكنيسة، وطُرح العلم بوصفه تصويرًا صادقًا للحقيقة منزهًا عن الخطأ.

وهكذا أدى كفر الإنسان بربه إلى تأليهه لنفسه أو للدولة، مثلما آلت إليه الحال في الأنظمة الفاشية والشيوعية لاحقًا.

وكان أهم الشخصيات على هذا الطريق المفضي إلى الهلاك: لود فيج أندرياس فيورباخ (1804-1872)، وكار ماركس (1818- 1883)، وتشارلس داروين (1809 - 1882)، وفردريش نيتشة (1844- 1900)، وسيجموند فرويد (1856- 1939). كان هؤلاء هم الآباء الروحيين لكوارث عجيبة حلت بأوربا خلال القرن العشرين.

(*) العدمية مذهب يسفّه القيم التقليدية ويقول بعبثية الوجود - المترجم.

وعندما أعلن نيتشة أخيرًا أن (الله) قد مات[1]، فإنه لم يقتل (الله) بل طرح تشخيصًا مفاده أن فكرة الإله قد انتهت وزالت من قلوب الملايين وسوف يستمر الأمر كذلك. وسرعان ما أدرك الناس أنه إذا كان (الإله) قد مات فكل شيء قد صار مباحًا.

وفقط في هذه المرحلة مع نهاية القرن العشرين ظهرت بشكل مستقل الأفكار السياسية لهوبز الداعية إلى الذاتوية (Individualism) غير الخلقية.

ج) خصخصة الدين:

وحيال هذه التوجهات دخلت الكنيسة معركة خاسرة ولا تزال تخسر إلى اليوم.. والأسوأ أن بعض الكنائس البروتستانتية تأقلمت مع هذا المزاج السائد إلى حد القبول بتنازلات تخرجها عن نطاقها مما أضر بها أبلغ الضرر، وهكذا نجد أن أغلب البروتستانت في ألمانيا لم يعودوا يؤمنون بألوهية يسوع ولا بعذرية أمه السيدة مريم. ومن الأشياء التي لا تصدق في هذا السياق أن بعض وعاظهم أعلنوا صراحة أنهم من الشواذ جنسيًّا، أو أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وضمن هذا السيناريو أصبح الدين في الغرب ذاتيًّا وانتقائيًّا بالكامل، وأمرًا خاصًّا في مجمله.

د) الليبرالية المدمرة:

وما أن نحُّو (الإله) عن عرشه بوصفه مصدرًا وضامنًا للأسس الخلقية، حتى تفشت النسبية الخلقية والانحلال الاجتماعي، على نحو مثير للقلق، لقد جنت الليبرالية على نفسها بإطلاقها لأهواء لا رقيب عليها، دون أي إطار خلقي ضابط. وبينما تتاح لأشخاص استثنائيين ممارسة حياة خلقية مستقلة مستمدة من

(1) Friedrick Neitzsche. Die Frohliche Wissenschaft, Book 5, Werke, Vol.1 p.489.

القانون الطبيعي أو من فهمهم للكرامة الإنسانية، فإن عامة الناس لا يبدو أنهم قادرون على الالتزام بمستوى خلقي لائق بمعزل عن الدين، إن أغلبهم يغتبط بسلوك الطريق الذي يرى أنه يحقق له السعادة، كما يقول وليام أُفلَس.

إن الانحلال الأخلاقي، كما يرمز له بمحرقة اليهود (الهولوكوست)، هو الظاهرة التي اتضحت شيئًا فشيئًا خلال القرن العشرين لتصل إلى درك الانهيار الخلقي في حالتي الفاشية والشيوعية، والتعصب للقومية العربية، والاستغلال الرأسمالي.

هل كانت صدفة أن القرن العشرين شهد أشرس الحروب في تاريخ البشرية، استخدمت فيها الأسلحة الكيماوية والذرية، وجرت فيه محاولات مروعة لإبادة مجموعات كاملة من السكان مثل المزارعين في روسيا السوفيتية، واليهود، والغجر، والشواذ جنسيًّا، في ألمانيا النازية، والمسلمين في يوغسلافيا السابقة؟ هل كان صدفة أن عجزت الكنائس والبابا ومواثيق حقوق الإنسان في إيقاف ذلك المد المدمر؟

هـ) معالجة النفس:

يخدع بعض المراقبين الغربيين أنفسهم بالاعتقاد بأن ما يرونه لا يعدو أن يكون انتقالا طبيعيًّا من مجموعة من القيم والأخلاق إلى مجموعة أخرى في عالم دائم متغير.

هذا الاعتقاد غير صائب لسببين:

الأول: هناك قيم لكل زمان لا يعتريها التغيير (مثل: حب الإنسان لأطفاله، اعتنائه بوالديه، والنفور من قتل الأبرياء، وعدم الإقدام على ممارسة التعذيب تحت أي ظرف).

الثاني: أن بعضًا مما يسمى بالقيم الجديدة، والتي يمجدها شباب هذا العصر، غير مقبولة بذات القدر الذي تتعارض به مع القيم الخالدة التي مثلنا لها في النقطة الأولى. وكمثال لذلك: أن تزعم امرأة حامل أن بطنها ملك لها، ليكون ذلك مسوغًا لقتل الجنين الذي في رحمها.

وينطبق ذلك على ما يسمى «الحق في الخوف» بمعنى عدم المخاطرة بأي شيء من أجل مصلحة المجتمع. وما يسمى بـ«الحق في السكر right to intoxication» الذي تدعيه جماعات من أحزاب «الخضر»، فيبررون بذلك الاستخدام السوي والسيء لمواد سامة.

والنتيجة هي أن المجتمع الغربي من سان فرانسيسكو بأمريكا إلى برلين بألمانيا صار الآن يتسم بما يلي:

- تفكك الأسرة على نحو ينذر بالخطر (معدلات طلاق مذهلة، أمهات وحيدات، أطفال تخلى عنهم ذووهم)، هذا ينذر بانهيار المجتمع بأكمله.
- ويصحب ذلك استغلال الأطفال والمواد الإعلامية الفاضحة، والممارسات الجنسية المنحرفة والمخالفة للقانون، والجرائم التي تقع في الأوساط المدرسية بين الطلاب، ومعدلات لا تقل ترويعًا من جرائم الأحداث.
- تعاطي المخدرات قد انتشر في العالم الغربي إلى حد أصبح معه إدمان المخدرات مثل: الكحول والسجائر والماريجوانا والكوكايين والهيروين وعقار الهلوسة (KSD)، والمخدر المسمى بسبيد (أي: السرعة)، والمخدر المسمى لكشري (أي: البهجة)، متغلغلا في بنية المجتمع الغربي، على أن الإدمان ليس كيماويًّا فحسب، فهناك التلفاز والإنترنت اللذان يمكن أن يعتبرا ضربًا من ضروب الإدمان أيضًا.
- كما سرت أيضًا عدوى الذاتوية حيث بدأ الإنسان الغربي يعيش بيئة مشبعة

بوسائل الإعلام في عالم كأنه مدينة واحدة عملاقة، فإذا هو فيها مخلوق وحيد قابع أمام شاشة الحاسوب يعيش عالما أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، بل وينغمس في الجنس عبر الهاتف أو الحاسوب.

و- سيطرة النزعة الاقتصادية على المجتمع:

يعزو الخبراء في الغرب هذه الظواهر بصفة رئيسة إلى تأثيرات الاقتصاد الرأسمالي التي تجعل من الإنسان أداة تخدم متطلباته كتحقيق الفعالية، والضبط الأمثل للإنتاج، والسعي إلى تحقيق أكبر قدر من الأرباح، وزيادة الإنتاجية. ويقول الخبراء: إن المجتمع يفقد ترابطه خلال هذه العملية، وإن «البرود» أخذ يعتري العلاقات الإنسانية حتى غدت أضعف بكثير من حالها قبل وقت قصير.

وبدلا من «اخضرار أمريكا» الموعود، فإن ما نشاهده هو برود في أسلوب عيش الأمريكيين. ما يهمهم هو ما تحققه الأسهم. وفي ظل هذا الوباء الذي عم فينا، فإن هناك أزمة وقت[1]، والوقت يعني بالتأكيد المال.

ما يمكن أن يقدمه الإسلام

1- البروليتاريا الروحية:

إن ما وصفته ـ بأمانة ـ يعني بوضوح تام أن هناك أزمة تعصف بالغرب، وهي أزمة ثقافية وجودية، على الرغم من إنجازات الغرب في ميادين الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والاقتصاد، والتكنولوجيا.

وهي أزمة يمكن أن تأذن بسقوط الغرب بعد فترة لا تطول كثيرًا بعد سقوط الغريم الأول للغرب (أي: الشيوعية) حوالي عام 1990م. أما اليوم فليس ما كان يسمى

(1) William Ophuls, p.152.

بالبروليتاريا الاقتصادية التي نظمها ماركس هي التي تهدد الغرب، بل إن مصدر الخطر المحدق به هو البروليتاريا الروحية (كما يقول والتر ليبمان) التي ترعرعت لمدة مائتي عام تحت مظلة التحديث.

2- في سبيل نموذج ديني:

باعتبار أن المحنة الخلقية التي يمر بها الغرب ترجع جذورها إلى نحو مائتي عام، يتضح لنا أن الأثر المطلوب لا يتأتى إلا عن طريق نقد جذري لعقلية الحداثة.. فإذا أمكن بنجاح إفاقة حركة التحديث من أوهامها، أصبح متاحًا للإنسان الغربي عندئذ فقط أن يغير أسلوب تفكيره.

إن إنقاذ الغرب من إلقائه بنفسه إلى التهلكة بتخدير نفسه يتطلب بطبيعة الحال إعادة تأسيس الروابط الوجدانية، عن طريق طرح أفكار «الألوهية» و«المقدسات» من جديد، وإصلاح الدين بوصفه تفاعلات طبيعية للحالة الإنسانية، على أن يصحب ذلك نبذ للعلم الواقعي لافتقاره للأسس العلمية السليمة.

إن المطلوب بعبارة أخرى هو نموذج ديني جديد لفهم العالم. وقناعتي أن الأمل معقود على الإسلام في تحقيق ذلك إن شاء الله[1].

أ/ الأديان الشبيهة بلغة الاسبرانتو[*] لن تجدي شيئًا:

إنني لا أنكر أنه يمكن من الناحية النظرية للمسيحية أن تنقذ الغرب من انحداره الحالي نحو هاوية الهلاك، ولكنني لا أعتقد أن المسيحية يمكن أن تحقق هذا الهدف

(1) تقل الإسهامات التي تضارع أعمال رودلف أوتو في هذا المضمار.

(*) الاسبرانتو هي لغة اصطناعية صنعها البشر وليست لغة طبيعية ورائدها هو العالم زمنهوف Zamenhif – المترجم.

في الواقع العملي، إذ إن هذه العقيدة فقدت الكثير من مصداقيتها في الغرب. ولا يبدو أن المسيحية تتمتع الآن بذلك القدر من الحيوية الذي تحتاجه لتغير مسارها الحالي، وأجدني في ذات الوقت مقتنعًا بأنه ما من نظام فكري بوسعه أن يرتقي بالمستوي الخلقي للغرب لا البوذية، ولا مذهب الليبرالية التنويرية القائمة على أساس القانون الطبيعي، إن الخيارات الخلقية تتطلب دوافع أخلاقية من القوة بحيث لا تتوفر إلا في دين لا تزال تدب فيه الحياة، وهذا أمر يدركه الإنسان بالفطرة.

إن الأديان الكاذبة أو الأديان الشبيهة بلغة الأسبرانتو لا يمكنها تحقيق المطلوب.

ب/ بوسع الإسلام أن يفي بالمطلوب:

أعتقد أن الإسلام يوفر كل ما هو مطلوب لإنقاذ الغرب، على الرغم من السلبيات التي يعاني منها العالم الإسلامي نفسه، مثل مختلف المعوقات والأمراض المتفشية في المجتمع المسلم، كالأمية، والفقر، والفساد، والظلم الاجتماعي، والتعذيب، والجمود، والشقاق، والتعصب، والاستبداد، والتمييز ضد النساء بما يخالف تعاليم القرآن، وتنامي الاتجاهات المادية.

أما كون الإسلام قادرًا على إنقاذ الغرب على الرغم من هذه النقائص المتفشية وسط أهله فأمر يمكن الاستدلال عليه من التحليل الذي سيرد في المباحث التالية.

3- «البرود» يعتري أمريكا:

في مطلب السبعينيات كان جيل الرفض والحيرة وشذاذ المجتمع من الهيبز في المدن يحلمون «باخضرار أمريكا»[1]، ولكن ما كنا نشاهده هو أن أمريكا أخذت «تبرد» شيئًا فشيئًا، وإن درجة حرارة المجتمع في الغرب ظلت تنخفض بصورة ملحوظة، وسط

(1) انظر الحاشية، ص569.

جيل السيبر[1] فأينما وقع بصرك رأيت ما يخالف وصية المسيح: «أحبب جارك كما تحب نفسك».

ورأيت أيضًا تنافسًا شرسًا، وأناسًا يتدافعون كل يسعى في سبيل سعادته الفردية في عالمه الخاص كـ(الشرنقة).

أ/ الدفء يسري في أوصال أمريكا:

ينظر العين بعين الإعجاب إلى المسلمين تقديرًا لترابطهم الاجتماعي، ويفيض الدفء حال التئام شملهم عندما يعانق الأخ أخاه. وينظر الناس غير مصدقين إلى المراكز الإسلامية التي تبنيها الجمعيات الإسلامية بنفسها، و يتطوع عمال البناء منهم بالعمل خلال عطلة نهاية الأسبوع. وكم من مهتد للإسلام اعتنقه بسبب ما شعر به من صفاء قلوب المسلمين، إن المسلمين يجردون الدين من الخصخصة، وكثير من اليافعين يحبون ذلك.

ب/ الترابط العرقي:

إن التعصب العرقي الذي يعاني منه الغرب لا ينحصر في الولايات المتحدة وإسرائيل فحسب، فالمهاجرون المسلمون كثيرًا ما يتعرضون للتمييز العرقي والديني. ويتمثل هذا التمييز مثلا في أخذ معلومات تفصيلية إضافية للركاب منهم من قبل سلطات الأمن بالمطارات.

ولا يمكننا أن نزعم أن الإسلام قد تمكن من القضاء على التمييز العرقي تمامًا.. ولكننا نعلن مع جيفري لانغ أنه ليس على الأرض دين آخر بلغ ما بلغه الإسلام في

(1) الذي يعيش في العالم الخيالي لشبكات الحاسوب – المترجم.

محاربة هذا الشر[1].. إن استمرار وجود مساجد السود في أمريكا يمكن أن يعزي إلى موقع المسجد، أكثر منه إلى وجود تفرقة عنصرية. ونسبة لحساسية المعتنقين الجدد للإسلام في بريطانيا وفرنسا وألمانيا لهذا الموضوع فإنهم يرفضون الإغراء المتمثل في تأسيس جمعيات تستند إلى الأصل العرقي. وبدلا عن ذلك فإنهم يؤسسون اتحادات للمسلمين في بريطانيا وفرنسا وألمانيا ويعقدون الاجتماعات للمسلمين الناطقين بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية. وقد كان عدم أهمية الأصل العرقي عند المساهمين سببًا اجتذب الكثيرين إلى الإسلام فاعتنقوه.

جـ/ مؤمنون أحرار:

يتعامل الشباب في الغرب بنفور شديد مع أشكال السلطة الهرمية (الكهنوتية). وهم يرون أن تحاشي الإسلام للأشكال التنظيمية التي تتسم بها الكنيسة أمر جدير بالملاحظة والاهتمام.

وفي الواقع فإن أي من العبادات المفروضة على المسلم لا تتطلب وجود مسلم آخر ليشهد أداءها، ويمكن لأي فتى بالغ دون العشرين، ويعرف تلاوة القرآن، أن يؤم الناس في الصلاة إذا لم يكن الإمام حاضرًا، ويمكن لكل مسلم أن يختارا لمذهب الذي يريد اتباعه[*].

فحامي المسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام في مكة ليس (بابا)، وليس الزواج شعيرة (مقدسة).

وما من شك في أن المسلمين بإنكارهم وساطة شخص ثالث عند الله تعالى،

(1) Jeffery Lang, 1997, p. 154.

(*) يقصد المذاهب الفقهية – المترجم.

يقدمون أنفسهم بوصفهم المؤمنين الذين يتمتعون بأكبر درجة يمكن تصورها من الحرية والانعتاق- لا شيء يمكن أن يتدخل بين المسلم وخالقه، لا كاهن ولا رهبان- وما أن يستوعب الشباب هذه الفكرة حتى تأخذ بمجامع قلوبهم.

د/ اللاعقلانية الدينية:

لا يعتز الغرب بشيء اعتزازه بالعقلانية، وهو ينحاز بطبيعة الحال إلى عالم العقل. وقد علمهم فيلسوف الحيرة المتناهية في الغرب «أمانويل كانت» أن وجود الله لا سبيل إلى إثباته بالعقل المحض.. إن الاستدلال العقلي هو آخر ما يلجأ إليه الإدراك البشري[1].. ولكن «كانت» أيضًا ظل يرى أن البشرية لا يمكنها المضي دون أن تنصب لها إلهًا يكون نتيجة للتفكير العقلاني[2].. ومن المثير للسخرية أن عددًا كبيرًا من الناس يتصرفون الآن كما لو كان «كانت» قد أثبت عدم وجود الله، وكما لو كان العلم القائم على الإدراك الحسي معصومًا من الخطأ.

هـ/ العقلانية الدينية:

على أنه يمكن ببساطة إقناع أنصار المذهب اليقيني بأن العقائد الأساسية للمسيحية مثل الخطيئة الأولى، والحلول الإلهي في عيسى (عليه السلام)، وتكفيره عن الغير (على الصليب)، والثالوث - وفي أفضل الأحوال لا تعدو هذه العقائد على كونها ألغازًا - يسهل إقناع هؤلاء الغيبيين بأن هذه العقائد تتدنى من الناحية العقلية حال مقارنتها بعقيدة التوحيد في الإسلام، أي: الصورة النقية لمنطق وحدانية الله وتفرده، وربما يكونون متأثرين في هذه المرحلة بالفكرة التي تستمد من مختلف الظواهر الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية، دليلا تستعبد على أساسه إلى أقصى حد

(1) Immanuel Kant, 1881.

(2) نفس المرجع.

احتمال عدم وجود الله[1].. ولربما يدركون في نهاية المطاف أن العلم بدوره، وقد أضحى الآن طرحًا أيدلوجيًّا في حد ذاته، يستند فقط إلى أسس تجريبية[2].

ومنذ ذلك الوقت بدا بعض الناس، بعد أن انتهوا عن وصف الدين بأنه غير عقلاني، بدأوا يدركون أن الإسلام هو الأكثر عقلانية بين كل الأديان، إذ إنه دين من يبصرون ويتفكرون ويتدبرون، وهو ما يتوافق بالتأكيد مع اتجاهات الحداثة الباحثة عن عقلانية الوجود.

و/ التوازن البنيوي:

لا يعد إفراطًا في التشاؤم أن يقال: إن إدمان المخدرات، بما فيها الكحول والنيكوتين، قد وصل إلى معدلات مدمرة في الغرب.

لقد انتشرت المخدرات الآن في كل مكان، من المدارس الثانوية إلى الأنفاق. وقد تفشت المخدرات في أحياء بعض المدن الأمريكية إلى حد جعل رجالا يلقون أسلحتهم بعد أن يئسوا من إمكانية السيطرة عليها، وفي ظل هذا الوضع فإن المسلمين الملتزمين يمثلون، بما عرفوا به من تيقظ وتوازن شامل، بارقة الأمل الوحيدة في القضاء على المخدرات. وفعلا كانت عقود مكافحة المخدرات في العديد من المدن الأمريكية الكبيرة من نصيب منظمات إسلامية، بعد أن ثبت أنها وحدها القادرة على محاربة المخدرات بوسائل ودية وفعالة في ذات الوقت. وهي عملية تبدأ من خلف القضبان.

ومن ناحية أخرى بدأ التدخين هذه الأيام يتحول إلى شيء لا يمثل الطابع الأمريكي، بل غدا يعتبر أمرًا غير لائق من المنظور السياسي. ألا يجب اعتبار المسلمين محقين بل ووطنيين في مثل هذه الظروف، وهم الذين عرف عنهم قلة التدخين حتى لا

---

(1) Richard Swinpurn.

(2) Henry Atlan, Gaston Bachelard.

يكاد يشاهد له أثر في أوساطهم؟

س/ الأسرة تحت المجهر:

أخذ الفزع المتنبهين من المراقبين في الغرب عند تفكيرهم في ما سيحدث للصغار بسبب انهيار الأسرة. إن فكرة مقدم جيل مريض ترعبهم. وفي ظل هذه الأوضاع، نجد أن المسلمين ـ وهم يرفعون من شأن الأسرة ويعلون مقامها فوق سائر المؤسسات الاجتماعية ـ هم أصحاب رسالة يجب أن يصغى لها الجميع: إن تصدع الحضارات يبدأ وينتهي عند مستوى الأسرة.

ح/ خيار الحياة:

نجد أن كثيرًا من المحافظين في أمريكا وأوربا منزعجون من كون الإجهاض قد أصبح مقننًا في كل مكان تقريبًا. وفي ألمانيا وصل الأمر إلى أن يدافع الأساقفة الكاثوليك عن الوظائف الإدارية التي يؤدونها في عملية الترخيص بالإجهاض. أما الإسلام فلا يجيز الإجهاض إلا إذا كان هناك خطر مؤكد يحدق بحياة الأم، فيقدم بذلك حلاً وسطًا خلقيًّا. أو ليس أجدى للمحافظين في الغرب أن يتحالفوا مع الإسلام من أن يفجروا عيادات الإجهاض؟

ط/ لا تشدد ولا إباحية:

يبدو أن الغرب ظل منذ زمن الرسل(*)، وبولس، والراديكالي أُغسطين، يتردد بين تيارين، أحدهما متشدد يدعو إلى اعتبار النساء شياطين، والثاني يدعو إلى الانغماس في الملذات الجنسية دون ضابط ولا رقيب ولا حياء، بينما نجد أن الإسلام قد ساعد على دمج النشاط الجنسي في حياة المسلم باعتباره شكلا من أشكال العبادة

(*) رسل بمعنى دعاة ومبشرين في المصطلح المسيحي وليس بمعنى أنبياء – المترجم.

دون تشنيع بالنساء أو بالزواج ودون الغلو في تقديس الزواج. هذا النهج المتوازن، الذي يأخذ بعين الاعتبار فطرة الإنسان، يفسر لنا لماذا ظلت الرهبنة وحرق الساحرات ظواهر مقتصرة على الغرب. ويمكن للتميز الذي يتمتع به الإسلام في هذا الجانب الشديد الأهمية بوصفه دينًا وسطًا، أن يعني الكثير بالنسبة للمجتمع الغربي.

ي/ تحرير المرأة المسلمة:

إن المرأة الغربية لا تنشد التحرير والعدالة الاجتماعية وتحقيق الذات فحسب، بل تطالب بوضع حد للاستغلال الجنسي الذي تتعرض له بوصفها أداة للمتعة. ونظرًا لما آلت إليه الحال من وجود مستمر للمواد الإعلامية الجنسية والسيطرة الصريحة للعامل الجنسي على الإعلانات التجارية، فقد يصبح من الواضح في الغرب أن النساء المسلمات يسعين للحصول على ذات النتائج المرأة الغربية، ولكن المسلمة في مسعاها هذا أكثر نجاحًا بكثير من الغربيات في صون كرامتها من خلال التمسك بتعاليم الشرع الإسلامي.

ك/ التصدي للشذوذ الجنسي:

ما من شك في أن تفشي الشذوذ الجنسي في أي مجتمع هو دليل على التفسخ الحضاري لذلك المجتمع، وإنذار مبكر ينبئ بأن الحضارة آخذة في الانحطاط. وفي الغرب لا يعتبر الشواذ جنسيًّا والسحاقيات أناسًا منحرفين بل يعتبر توجههم هذا واحدًا من خيارات متعددة، كل منها يصلح بنفس الدرجة ليكون خطًّا يتبعه الفرد خلال مسيرة حياته. ويقوم الشواذ جنسيًّا بترويج «خيارهم» هذا على نحو يتسم بالعدوانية، وهم في ذلك يطلبون الاعتراف ويحصلون عليه بوصفهم أقلية تحتاج إلى الحماية، كالنساء، والسود، وفي سان فرانسيسكو بأمريكا تحول سكان اثنين من أحياء المدينة بكل من فيها إلى شواذ جنسيًّا. أما في أوربا فقد أوشك الشواذ على الحصول

على «حق» الزواج، ومن ثم التمتع بكل الحقوق المترتبة عليه.

وفي ظل هذا الواقع تبدأ الأغلبية «المستقيمة» من المجتمع في الاستعداد للمواجهة وقد انتابها الخوف على مؤسسة الزواج، وربما لاحظوا أن الإسلام في هذا المضمار أيضًا يسلك طريقًا وسطًا: حين يتعاطف مع «المولودين» بميول جنسية مثلية ولكنه يرفض في ذات الوقت بإحلال الشذوذ أو المثلية الجنسية لتكون أسلوبًا بديلا للحياة.

وغنى عن القول: إن الإسلام إذا طبق تطبيقًا سليمًا يكون علاجًا للمخاطر الفتاكة الناشئة عن مرض الإيدز[1].

ل/ مشكلة زيادة الوزن:

يعاني الإنسان الغربي من القلق بسبب خوفه من زيادة الوزن وارتفاع معدلات الكوليسترول في دمه – لذا فهو في بحث دائم عن وصفات تنظيم الغذاء والأدوية «السحرية» للسمنة.. أما آن لهؤلاء أن يفهموا الإسلام كدين مقنع عند اكتشافهم لفريضة الصوم وقواعدها؟

م/ التعايش مع ضغوط الحياة:

يرزح الإنسان الغربي تحت وطأة الضغوط ولا ينجو منها حتى أطفال المدارس والمسافرين لقضاء عطلاتهم. لذا يبقى هناك احتمال أن يزور الإنسان الغربي طبيب الأمراض النفسية والعصبية لكي يتعلم كيف يواكب ظروف حياته، إن التأمل الفلسفي (يوغا)، ومراسم تقديم الشاي الياباني، تعتبر بعضًا من الوسائل التي يرجع إليها الأفراد الذين يشكون من وطأة الضغوط. إن أمثال هؤلاء يمكن أن يجدوا الدواء الشافي

(1) Malik Badri.

لعلتهم في أسلوب التركيز والتدبر المنتظم الذي تنطوي عليه صلاة المسلمين والحالة العقلية التي تصحبها (الإسلام هو الاستسلام لله تعالى، والتقوى هي إدراكنا لإحاطته – عز وجل– بنا).

ن/ تفعيل الرأسمالية:

ظل المجتمع الغربي منذ ظهور الرأسمالية والاشتراكية يتردد بين النظامين. أما المسلمون فالقرآن يدعوهم إلى احترام حق الملكية الفردية لذا فهم بطبيعة الحال مناهضون لمبدأ الجماعية ولكنهم أيضًا يرفضون النزعة الاستغلالية التي تتسم بها الرأسمالية، وذلك بتمسكهم بمبدأ العدالة الاجتماعية تحت كل الظروف. ويتمسك المسلمون أيضًا باستخدام رأس المال فقط في صيغ الشراكة التي تحتمل الربح والخسارة، دون معاملات ربوية[1] وهم بذلك يساعدون في الدفاع عن الروح الاستثمارية التي تعتبر حيويتها أساسًا تقوم عليه الرأسمالية (وبفقدانها يصاب النظام الرأسمالي بالتشبع والركود)[2].

4– الكم مقابل الكيف:

يمكن للمسلمين على العموم أن ينبهوا شركاءهم في الغرب إلى أن أهم فرق بين عالميهم هو موقف كل منهما من مسألة الكم والكيف. فمن الواضح أن الغرب يهتم بالجوانب الكمية إلى الحد الذي جعلهم لا يدعون شيئًا ذا قيمة (مالية) حقيقية إلا وحسبوه بالمعايير الكمية، أي جعلوه رقميًّا، وهناك إنكار عام في الغرب لوجود أية قيم لا يمكن حسابها بالمعايير الكمية، أو وجود أشياء لها قيم روحية فحسب. وانطلاقًا من هذا المبدأ فإن الأساس في حياة الإنسان الغربي هو ما يملك، في حين أن حياة

(1) Khushid Ahmed.

(2) Umer Chapra, 1985, 1992.

المسلم توجه اهتمامه إلى حياته وكينونته[1].. إن الشرق بما فيه العالم الإسلامي، على الرغم مما يخضع له من سيطرة في هذا الجانب، لا يزال يمثل المنطقة التي يعلى فيها الناس من شأن ا لنواحي الكيفية (أو النوعية) في كثير من جوانب حياتهم ويعتبرونها أعلى قدرًا من الجوانب الكمية، ولا ريب في أن هذه الحقيقة، أي: كون الإسلام يهتم بالتحديد بنوعية الحياة، سوف تثير انتباه الكثيرين.

5- الإسلام هو الحل:

لقد تعرضت فيما سبق إلى أربعة عشر علاجًا يمنحها الإسلام للغرب، وتقديم الإسلام على هذا النحو، أي بوصفه علاجًا لكثير من علل الحضارة الغربية، هو بالطبع الاستراتيجية المثلى للدعوة لدين الله.

أ/ الاعتراف بوجود المرضى:

من المعروف أن العلاج لا يوفر لمريض ما لم يعترف هو أولا بوجود المرض، ولكن للأسف على الرغم من التحليلات الذكية مثل كتابات داني بيل أوفلس، فإن القليل من الغربيين يدركون فداحة الأزمة الحضارية التي تمر بها بلادهم. فأغلب أهل الغرب قد أعماهم غرور المباهاة بالانتصار. لذا فمن المتوقع من الناس تغيير اتجاههم في منتصف الطريق ولكنهم ماضون قدمًا في غيهم يعمهون.

ب/ تناول حبة الدواء:

إن مجرد الاعتراف بالمرض لا يكفي لعلاج المريض، بل يتعين عليه تناول الدواء الموصوف والموضوع على المائدة إلى جانبه. إن جزءًا من المشكلة التي يواجهها الغرب تتمثل في أنه، وللأسف، غير قادر على متابعة التبصر الذي يعينه على التطبيق. إن

(1) William Ophuls P. 47.

تخاذل الغرب عن التصرف أو تأخره في ذلك خلال فترة ارتكاب الصرب لفظائعهم في البوسنة والهرسك وكوسوفا ، نتيجة لسقوطه الخلقي أيضًا، كان شاهدًا على هذا الوضع، وقد أصاب رومان هرزوغ رئيس ألمانيا الاتحادية من 1994-1999م، إذ قال: «إن مشكلتنا ليست معرفية بل هي مشكلة تطبيق».

ج/ علامات على الجدران:

يحدثنا القرآن عن أقوام كثيرين أخفقوا في فهم أعراض ظهرت داخل مجتمعاتهم، وعرضوا عن كل النذر تهاوت حضاراتهم على نحو مأساوي. وإني لفي ريبة من أمر هذا البرود الذي اعترى الغرب، وأظن أنه بدوره سوف يعجز عن استجماع الشجاعة الكافية لإحداث إصلاحات جذرية.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الغرب، رغم انتصاره على الشيوعية، قد يكون هو نفسه في طريقه إلى زوال في هوجة سكر يدمر فيها نفسه - فهو ضحية لتناقضاته الداخلية وأكثرها فتكًا هو الشرك، وذلك بتأليهه للبشر- إن حدوث كل ما ذكرناه هو أمر محتوم ما لم يعترف الغرب مرة أخرى بالمقدسات والحقائق الغيبية، ويؤمن بالله، ويبدأ من جديد في العيش وفقًا للقيم المطلقة والهدي الرباني، الذي بُلِّغ للبشرية في القرآن المبين، وعززته سنة خاتم النبيين ﷺ.